مراجعة الدراسات السابقة في البحث النفسي

Literature review in psychology research

خواجة فقيه *

أستاذ محاضر أ، جامعة تامنغست

Khouadja Fakih

Assist professor A, University of Tamanresset

Khouadja@mail.com

تاريخ الاستلام: 2024/01/14 تاريخ القبول: 2024/05/04 تاريخ النشر: 2024/05/30

- **الملخص:** البحث العلمي تراكم كمي وكيفي، فهو كمي بتكرار النتائج العلمية في مختلف السياقات كالثقافية والإجتماعية، وهو تراكم كيفي بتنوع الأدلة وتعددها كالأدلة التي تستقي من مختلف المناهج البحثية، والتي تأتي من عديد التخصصات العلمية، ومن مجتمعات وثقافات متباينة، ولا تُهمل تلك التي تدعمها نظريات وتماذج تفسيرية منتوعة. إنه لا يمكن الحديث عن هذه التراكمات ولا يمكن للأخير أن يحدث إلا عبر المراجعة النقدية والتحليلة للدراسات السابقة، ولكن بعض الباحثين يحملون معتقدات غير منسجمة مع الأدبيات المنهجية حولها، فيعمدون إلى جمعها وتقديمها من غير جهد معرفي مبذول لأجل مراجعتها أو نقدها، فيصير توظيفها واستخدامها في تطوير فكرة البحث أمرا عسيرا على الباحث، واستثمارها في تفسير نتائج الدراسة وفي المساهمة في إدماج إضافات جديدة في البناء العلمي لموضوع الدراسة كذلك أمرا شبه مستحيل. وتهدف هذه الورقة البحثية إلى بحث كيفيات مراجعة الدرسات السابقة ضمن البحوث العلمية في علم النفس، وتصويب بعض الأخطاء الشائعة، وتسديد بعض الإجراءات التي تفضي إلى توظيف غير منهجي لها، فالشائع هو تناولها بطريقة سردية لا تضيف إلى البناء المنهجي للدراسات شيئا، سوى أنها تركيم للمعلومات، ومما تم التركيز عليه العمليات المعرفية المتطلبة لإتمام المراجعة بشكل يؤهل قراءة الباحث لها لإضافة الجديد وإبرازه، وتم التركيز أكثر على تبيان أهميتها ودروها في سيرورة البحث النفسي وتأثيرها على خطواته ومخرجاته، وكيفية التعامل معها، وكتابتها بصيغة بنائية تبين الجديد المتوقع من الدراسة الجارية.

- **الكلمات المفتاحية:** أدبيات الدراسة، التراث الأدبي، مراجعة الدراسات السابقة، البحث في علم النفس.

Abstract: Scientific research involves the quantitative and qualitative accumulation of knowledge. The quantitative aspect entails replicating scientific findings in various contexts, including cultural and social settings. On the other hand, the qualitative aspect consists of diverse evidence from multiple disciplines, such as evidence derived from various research methodologies across different scientific fields and communities. These accumulations encompass a range of theories and interpretive frame- works. Reviewing literature critically and analytically is essential for building upon these accumulations. Nevertheless, some scholars maintain beliefs that contradict prevailing methodological principles. They present these ideas without engaging in cognitive analysis for scrutiny or critique. This can pose challenges for researchers when

*- المؤلف المرسل

incorporating such beliefs into their work or interpreting study outcomes. Effectively leveraging these divergent perspectives can help integrating novel insights into the study's scientific framework. The current paper aims to investigate how to review literature in psychology research, in order to make its practice more accurate, especially correcting some common mistakes, which lead to non-methodological use. Narrative style is more common among our students, that it does not broaden or increase new knowledge. This paper focuses on cognitive processes required to conduct literature review, so the research is to improve the current knowledge, it also emphasizes its importance and roles in developing the research ideas, steps and outputs, and how to report it constructively in the way that demonstrates clearly the new knowledge the research has created.

Keywords: literature review, psychology research.

- مقدمة:

تنطلق الكثير من البحوث من الصفر وتعيد إنتاج الملعقة، بالرغم من اعتمادها على كم من الدراسات السابقة، وهذا ما قد يفسر تكرار نمط من الفرضيات الفارقية أو التي تقارن بين المجموعات، فهي بالنسبة للبعض إجراء شكلي لا بد منه لإتمام العمل وتقديمه للمناقشة أو النشر، ولكن إذا حذف جزء الدراسات السابقة من العمل ما تغير منه شيء، ويعود ذلك إلى فهم دور الدراسات السابقة، بل إلى فهم طبيعة البحوث الكمية وطبيعتها، التي تقوم أساسا على اختبار النماذج النظرية والفرضيات العلمية التي تُستقى أساسا من الدراسات السابقة، فتصورات بعض الباحثين والطلبة بعيدة عن فلسفة البحث وأسسه الإبستمولوجية، ما جعلهم يتناولون خطوات البحث العلمي كإجراءات منفصلة عن بعضها، مفتقدة للترابط المنطقي والنباء المتسلسل الرصين، ومن جهة فإن عروض التكوين التي تدرس في تخصص علم النفس تفتقر إلى المضامين التأسيسية للمنهجية العلمية التي تجعل الطالب على بصيرة بغايات تلك الخطوات المنهجية ومسوغاتها، وقمين بتلك المضامين أن تجعل الطالب يتفطن لأي ممارسة لا تنسجم مع أسسها النظرية.

إن توظيف الدراسات السابقة في بعض البحوث النفسية لا يخرج من هذه الملاحظة العامة، إذ يصُفُّ بعض الطلاب والباحثين الدراسات السابقة في بحوثهم صفّا من غير رابط منطقي بينها، حيث يعوزها العرض الحجاجي الذي يستشكل فكرة ما، أو يبين حاجة إلى دراسة موضوعه الذي يظل عاما في الغالب دون أن يتحول إلى إشكالية، ويعود هذا إلى ضحالة في القدرات المعرفية الموظفة في قراءتها وتحليلها، وتتناول هذه المساهمة بعض التوضيحات الضرورية التي تسدد وتصوب الممارسة المنهجية في توظيف الدراسات السابقة.

1- تعريف الدراسات السابقة: الدراسات السابقة هي كل عمل أكاديمي يتعلق بموضوع دراسي معين، ويشتمل على البحوث ذات العلاقة بمختلف أنواعها من نظرية وميدانية، وكذا النظريات

التي تتناول ذات الموضوع، وحسب أوركسي وأومالي (2005) Arksey & O'Malley فإن تطور مراجعة الدراسات السابقة أفضى بها إلى عدد كبير من المصطلحات التي تصف مقاربة هذه الممارسة، كأدبيات الدراسة والتراث الأدبي وغيرهما، حيث تشترك في خواص أساسية وهي: جمع وتقويم وتقديم الأدلة المتعلقة بموضوع معين.

يعني مراجعة الدراسات السابقة القراءة النقدية والتقييمية لما سبق من دراسات حول إشكالية البحث، بحيث تضعه في النهاية التي سيواصل منها البحث والإضافة العلمية المتوقعة، ويترتب على ذلك إيجاد التبريرات المناسبة للإشكالية، واستنباط فرضيات جديرة بالدراسة ومؤسَّسَة.

2- أهمية الدراسات السابقة:

تجعل الدراسات السابقة الباحث المبتدئ يألف موضوع الدراسة. وتعني ألفة الباحث بموضوع الدراسة أن يُمَفهِم أفكاره السطحية ويطورها بشكل يضع بدايات فهمه مع نهايات ما توصل إليه غيره من الباحثين، فقد يستحوذ موضوع ما على باحث لا يمتلك مفاهيمه المفتاحية، وفي هذه الحالة غالبا ما لا يكون الباحث على دراية بالخلفية الأساسية للموضوع، من حيث مفاهيمه ونظرياته، ... والإنطلاق في الدراسة في هذه الوضعية يجعله يصُوغ مشكلات سطحية وغير مرتبطة بالبناء العلمي السابق. وتفيد الدراسات السابقة الباحث المبتدئ بتسييقه معرفيا بالموضوع، وإذا كان الغرض من إجراء البحوث العلمية هو المساهمة في إثراء المعرفة العلمية الجارية فإن الباحث ملزم بأن يبين أنه قد استوعب ما سبقه من الدراسات والأفكار في موضوعه ليثبت جدارته بالإضافة العلمية المتوقعة، إن مراجعة الدراسات السابقة ضمن بحث معين يساعد الباحث على تطوير تصوراته حول مشكلة الدراسة وتساؤلاتها.

وتمنح الدراسات السابقة البحث الجاري العمق. إذ لا يمنح بعض الطلاب والباحثين أنفسهم فرصة الإطلاع الجيد على الدراسات السابقة وتأملها، لذلك عادة ما يلجأ بعضهم رأسا إلى دراسة الفروق بين الجنسين أو الفروق حسب الفئات العمرية أو الأقدمية، أو حسب المهن والوظائف أو حسب ما يجده من فئات في مجتمع الدراسة منطلقا من حسه المباشر، ويقود هذا الإجراء غير المؤسس إلى صياغة تساؤلات وفرضيات غير مبررة ولا مرتبطة بالدراسات السابقة، وتتسم بالسطحية ولا تكاد تتضح صلته بالتراث الأدبي، أي أنها لا تختبر فكرة تُستنتج منطقيا أو بشكل صريح من الدراسات السابقة، وبالتالي لن يكون البحث الجاري إمتدادا طبيعيا لما سبق، وسيجد الباحث صعوبة كبيرة في مناقشة النتائج بعمق أو ربطها بأدبيات الدراسة وبالبناء العلمي السابق، وهذا هو واقع الحال، إذ نجد مناقشات سهللية غير محكمة ولا يجد فيها القارئ الناقد

ما يقنعه، وغير ذلك من الفجوات المنهجية والمنطقية الناتجة عن القفز فوق مرحلة استكشاف الموضوع وتجاوزها، فيفتقدون إلى الفهم المعمق لموضوع الدراسة، وينتهون إلى تساؤلات وفرضيات مبتورة الصلة بالتراث السابق، ويصوغون نتائج يصعب ربطها بنتائج غيرهم من الباحثين.

ويشير الباحث باستخدامه للدراسات السابقة إلى أنه يدرك العلاقة بينها وبين دراسته، ويبرز من خلالها مشكلته البحثية وفرضياته التي يود أن يختبرها. ويمكن أن يتجسد العمق الذي يستفيده الباحث من الدراسات السابقة في كشفه للتناقض في نتائج الدراسات السابقة، أو ضعف في المناهج المستخدمة، أو غير ذلك، كأن يكشف باحث أن معظم الدراسات أجريت فقط باستخدام المناهج الإرتباطية وليس هناك دراسة تجريبية ترجح العلاقة السببية؛ أو نقصا في معاينة مجتمع الدراسة، كأن يجد أن الدراسات السابقة لم تشتمل مجتمعا معينا؛ أو عيبا في أدوات جمع البيانات، وغير ذلك.

الدراسات السابقة تسيق البحث الجاري. إذ تنمو المعرفة وتزدهر بالدراسة المستمرة لما يقلق الباحث ويثير فضوله، ولا تحل المشكلات الإجتماعية إلا بالتراكم المعرفي، لذلك مهما كان البحث الذي يمكن أن يجري فيجب أن يفهم ويخطط له ضمن الدراسات السابقة حتى يتحقق التراكم المعرفي عبر استمرار البحث والإستفادة مما سبق، فليس البحث مهما إلا بكونه استمرارا لمعرفة سابقة، لذا يجب أن يفهم ضمن السياق العام للتخصص وللعلم عامة، أي على الباحث أن يبين أنه قد فهم مشكلته ضمن ما توصل إليه الباحثون السابقون، وأنه يدرك علاقة إشكاليته بالأطروحات السابقة، فالبحثه هو جزء من قصة طويلة بدأت منذ قديم البحث العلمي إلى لحظته الراهنة، والجهل بالسياق العام حتما ينتهي بالبحث إلى تفسيرات نتائج منعزلة ومبتورة وحتما غير بناءة.

إن نتائج دراسة ما إما أن تدعم استنتاجات بحوث أخرى أو تفندها، فمادام الباحث يجهل عمق تلك الاستنتاجات وكيف استخلصت فإنه لن يعرف كيف يربط بين نتائج دراسته والاستنتاجات النظرية المطروحة في الدراسات السابقة، وإيجاد الصلات الإشكالية بالدراسات السابقة يضع الباحث في موقف جيد لاستثمار دلالة نتائجه وربطها بنتائج الدراسات السابقة (Ary, Jacobs, Sorensen, & Razavieh, 2010)، وبذلك تتضح الإضافة العلمية التي يضمها الباحث إلى البناء العلمي السابق في موضوعه، إن مراجعة الدراسات ما هو إلا تسييق للبحث المقصود، أي هو وصف للصورة العامة التي تشمل إشكالية الدراسة ثم ليجد الباحث لنفسه موطء قدم ضمنه.

فانطلاق الدراسات المستجدة مما سبق من معارف ودراسات يمنح البحوث الحديثة قاعدة علمية متينة للإستشكال والتساؤل والافتراض، وبالنتائج المتوصل إليها يمكن تمديد حلقة المعارف، وجعل اللاحق منها تطويرا وتوسيعا وتعميقا للسابق، لذلك لا يمكن لأي دراسة كمية أو كيفية أن تستغني عن الدراسات السابقة ولكن بطرائق مختلفة.

تفيد الدراسات السابقة في ربط نتائجها واستنتاجاتها النظرية بنتائج الدراسة الجارية، عن طريق المقارنة ليس فقط من حيث النتائج كما هو شائع في الكثير من الدراسات المنتشرة هنا وهناك، بل تشمل المقارنة أيضا الأدلة التي تسند نفس الإستنتاجات، ونوعيتها وقوتها، والنظر فيما إذا كان البحث الجاري يوسع حدود نتائج الأدبيات التي انطلق منها، أي ينظر ما إذا استطاع أن يقدم جديدا فيعمل على إبرازه واستغلاله لتوسيع الإطار المفاهيمي للدراسة. أما إذا خالفت نتائجه كل التوقعات المبثوثة في الدراسات السابقة كانت الفرصة سانحة للباحث كي يقدم تفسيرات وفرضيات جديدة ورؤى غير مسبوقة، على أن يحسن عرض الأدلة التي يستند عليها، ويدقق البيانات والشواهد من حيث قوتها وشيوعها لتحضى تفسيراته الجديدة بالقبول لدى الأخصائيين.

تفيد الدراسات السابقة في معرفة ما إذا كانت الإشكالات البحثية والتساؤلات التي طرحت من قبل الباحثين الآخرين، ليتجنب التكرارا الذي لا يضيف إلى التراث العلمي شيئا، لذا يتوجب على الباحث أن يبسط وضع المعرفة الراهنة للمشكلة قيد الدراسة، وبناء عليه يمكن أن يوضح الإضافة التي سيقدمها والإشكالية التي سيتناولها من خلال الفجوة التي تكتنف الدراسات السابقة أو إجراء دراسة توسع من حدود المعرفة الراهنة (McInerney, 2001).

فقد تكون تناولت موضوع الإحتراق النفسي في المناطق الحضرية والمدن الكبيرة، ولكن لم يبحث الموضوع في المناطق النائية، ويعد هذا نقصا يمكن تحديده، كما يمكن أن تكون الدراسات السابقة قد تناولت المشكلة وفقا لمقاربة منهجية واحدة، ولتكن المقاربة الكمية، فيلجأ الباحث إلى نقدها وتبيان كيف أن الجوانب الكيفية والمعاني التي يضفيها الأفراد المبحوثين على ظروف الإحتراق النفسي وأبعاده لم تستشف بعد، أو أن الموضوع يحتاج إلى أن يدرس من الناحية الثقافية أو الدينية في المجتمع الجزائري على سبيل التمثيل. وبذك يكون قد استثمر مراجعاته النقدية للدراسات السابقة بكيفية تبين الإضافة التي ستقدمها دراسته.

كما تفيد مراجعة الدراسات السابقة بالنظريات والمفاهيم التي أطرت تفسير النتائج المتوصل إليها وحدودها وإمكاناتها. وتفيد بمعرفة المقاربات التي انتهجت، كيفية أم كمية بمختلف

مناهجها، وتقدم أيضا معلومات لمعرفة المشكلات أو الصعوبات التي تعترض بحث الإشكالية قيد البحث، كصعوبة إجراء التجارب أو تدقيقها، ومشكلات قياسها كما في قلق اللغات الأجنبية.

إن مراجعة الباحث للدراسات السابقة تساعده في إيجاد مكان مناسب لدراسته، حيث يتواصل بها مع الدارسين السابقين ويناقش أفكارهم ونتائجهم، ليتوصل في الأخير إلى موضع قدم له حيث يعلم الإضافة التي يمكن أن يقدمها.

وبالتالي فهي تمارس دورا توجيها للبحث، ومراجعتها تستمر من قبل أن يبدأ إلى غاية نهايته، إذ تساعد على بناء وصياغة إشكالية جديرة بالدراسة، كما تساعد في اختيار المنهج الذي يناسب البحث، إلى تفسير نتائج الدراسة بحيث تظهر الإضافة الجديدة التي يبدعها الباحث، إنها تقدم الخلفية النظرية والعلمية للبحث، كما تضع إشكالية الدراسة في سياقها التراثي، أي وضعيتها من حيث تطور المعرفة، ويجب أن تظهر تمكن الباحث من الموضوع العام، والإشكالية الدقيقة التي يتناولها.

لا يستطيع الباحث أن يعتمد على عدد جدّ شحيح من الدراسات السابقة بالخصوص إن كانت واحدة أو اثنتين فقط، وهو في هذه الحالة لا يبني إلا تصورا محدودا وربما خاطئا حول موضوع الدراسة، وليس من المعقول أن تبنى فرضيات على دراسة ركزت على جزئية وتفتقر إلى مزيد من التدليل، وعليه فإن الاعتماد على عدد أكبر من الدراسات المراجَعة يقلل من تأثير الدراسة الواحدة أو القليلة وتحيزاتها، وليكوّن صورة شاملة أو أقرب إلى الشمول في الموضوع، بما في ذلك الدراسات المتناقضة من حيث النتائج (Aveyard H. , 2014) ، بالإضافة إلى ذلك فإن الباحث سيتكمن ـ من خلال كم معتبر من الدراسات السابقة ـ من تحقيق كشف علمي، حيث يحصل منها على إشارات تحسن فكرته حول المشكلة ومعضلتها.

قد يهتدي الباحث القارئ والناقد للدراسات السابقة إلى إشكاليات وفرضيات عدة لا يمكن أن يعالجها في نفس الدراسة المقصودة، وعليه فإن التحكم في تدفق الأفكار الجديرة بالبحث وتنظيمها في بحوث مستقلة ـ من حيث الزمن ـ أمر غاية في الأهمية، ليمكن أن يضع تصميمات بحثية مُؤجرأة وقابلة للدراسة؛ ومن جهة أخرى فإن هذا النوع من التناول المعمق لمواضيع الدراسة يولد إشكاليات مستقبلية تجعل البحث في عطاء بحثي مستمر.

توفر الدراسات السابقة الإطار المفاهيمي للباحث لتفسير نتائجه، وإلا صار إلى تفسيرها معتمدا على مقتضيات متغيرات الدراسة فيكون نقاشه إنشائيا خاليا من المعنى، أو يلجؤ إلى مضامين متغيرات الدراسة كما هي في الثقافة الشعبية المعتادة، ويستخلص منها ما لا يقنع علميا. وغير المقنع علميا هو "مشكلة الدراسة" التي ليس لها أساس نظري، وهو ربط اعتباطي لا يمكن أن

يفضي إلى معرفة متماسكة من الناحية المنطقية، فمثلا هل يعقل أن يربط باحث بين متغيري طول الأصابع والميل إلى ممارسة السلطة، فقد تبدو إشكالية مشابهة للإشكالية التي تربط بين إسم السائق وطول الطريق، ولكن علم النفس يجد للعلاقة بين طول الأصابع وممارسة السلطة تبريرا حيث أن طول الأصابع يشير إلى جنس صاحب اليد، إذ أن التستسترون يساهم بشكل كبير في نمو العظام من قبل الميلاد إلى البلوغ، وهكذا يمكن الربط بين طول الأصابع والميل إلى ممارسة السلطة وفقا لهذا الإطار المفاهيمي الذي يجمع علم النفس إلى علوم الأحياء، أما إذا افتقر الباحث إلى هذا الإطار فإن الحديث عن العلاقة بين إسم السائق وطول الطريق غير ممكن لأنه يفتقر إلى الإطار النظري والمفاهيمي على حد سواء.

3- أنواع مصادر الدراسات السابقة:

تتنوع مصادر الدراسات السابقة حسب أولية المعلومات التي تشتملها، ومنها تكتسب أهميتها.

1-4 -المصادر الأولية :

هي المصادر التي تشتمل على النتائج العلمية التي لم يسبق إليها أحد أو لم تذكر في مرجع آخر، فقد تكون الكتب التي تشتمل على النظريات ومن تأليف مؤسسيها أو البحوث التي توصلت إلى كشوف علمية غير مسبوقة، وأيضا منشورات الملتقيات والمؤتمرات العلمية التي تشتمل على آخر التوجهات العلمية واهتمامات الباحثين (Frederick, Leong, & Lyons, 2012).

2-4 -المصادر الثانوية :

وهي التي يصف فيها المؤلف أعمالا أنجزت في بحوث سابقة، حتى وإن كان هو مؤلفها، ذلك أن الباحث الذي أنجز بحثا، ويعيد الكتابة عن بعض جزئياته دون الإحالة إلى البحث الذي نشره أول مرة يعدّ ذلك انتحالا علميا، لذا يجب أن يحيل إلى البحث الذي نشر فيه ما يلخصه أو يشير إليه، وهذا الإستشهاد يجعل الكتاب مصدرا ثانويا.

ومن الأمثلة الأخرى على المصادر الثانوية مقدمات البحوث والمقالات العلمية (التي تشتمل على أجزاء الإشكالية والتساؤلات والفرضيات ومناقشة أدبيات الدراسة) لأنها تؤسس للدراسة الجارية (Gravetter & Forzano, 2018) وأي مصدر علمي لا يتناول المعلومة المكتوبة كمؤلف أول لها.

ليس اعتماد المصادر الثانوية أمرا سيئا في عملية البحث، إذ أنها تختصر الوقت للباحث المبتدئ، وتلخص له أفكارا مهمة في الموضوع تساعده على فهم أبجديات مشكلة الدراسة ومسلماتها الأساسية، كما يجد فيها قائمة بالمصادر الأولية التي يمكنه أن يعود إليها بكل يسر

وبجهد أقل، على أن يتعامل مع المصادر الثانوية على أنها أقل أهمية، ولا يستشهد منها إلا بالقليل الذي لا يتوفر عنه المصدر الأولي، ويجب أن يسعى وراء المصادر الأصيلة غير الناقلة.

بالرغم من الميزة الجيدة التي تتمتع بها الكتب المتخصصة مثلا كمصادر ثانوية، حين تقدم للباحث مراجعة شاملة للموضوع الذي يهتم به،إلا أنها لا تستطيع بحال أن تقدم له آخر التوجهات البحثية وما يجد فيه من إشكالات وأفكار إبداعية (Frederick, Leong, & Lyons, 2012)، وتبقى محدودة بالوقت الذي طبعت خلاله؛ ولكنها أساسية ويجب أن يبدأ بها الباحث الذي يجد الموضوع جديدا بالنسبة إليه ليتمكن أولا من أساسيات الموضوع، وإن انتقل مباشرة إلى الكتابات المتقدمة كالمقالات والكتب المتعمقة أضر بفهمه للموضوع وأضاع وقته سدى (Hegde & Salvatore, 2021).

عموما تعتبر الدراسات العلمية المنشورة المحكمة أكثر المصادر مصداقية وإثراء حتى من الكتب الحديثة، حيث أن الأخيرة حتى وإن كانت حديثة وجديدة إلا أنها بعد فترة قليلة من النشر أو أثناء طبعها قد يغدو جزء منها على الأقل مما تجاوزه المتخصصون في الموضوع، ذلك أن باحثين كثر يتناولون ذات الموضوع، فليس هناك ما يضمن أنه لا جديد يناقض المدوَّن العلمي في الكتب، وتظل الدراسات هي العصب الذي يمد البحث بالثراء وبالإحكام المنهجي ويمنحه الجدة ويجعله جديرا بالقراءة والإقتباس منه من قبل المختصين في الحقل، على أن الكتب العلمية المتخصصة ـ خاصة ما كان منها ذا أهداف بيداغوجية أو كان مقدمة عامة في موضوع الدراسة ـ مصادرَ مهمةً للباحث المبتدئ الذي يحتاج إلى أن يستوعب أبجديات الموضوع.

4- كيفية مراجعة الدراسات السابقة:

بعد اختيار دراسات جديرة بالقراءة من خلال التحقق من أنها قد خضعت لمراجعة الأقران (Lodico, Dean, & Katherine, 2010) كالتي تنشر في المجلات العلمية المحكمة ورسائل الدكتواره، والكتب التي يؤلفها الأعلام في اختصاصاتهم أو التي زكاها علماء أكفاء، يصير لطريقة مراجعة الدراسات السابقة أهمية بالغة في استخلاص فوائدها، ولجعل الدراسة الجارية أمرا يستحق الجهد واستمرارا لما سبق من الجهود البناءة، وعليه لا بد من ضبطها وإجرائها بدقة، وتوضيحها في الدراسة حسب (Aveyard , 2014) يمنح القارئ ثقة كبيرة في الدراسة ونتائجها، وإلا على القارئ أن يحتاط من نتائج الدراسة الجارية.

بالإطلاع على الدراسات السابقة يتأثر الباحث بالنظريات والإتجاهات البحثية ومناهجها في موضوع الدراسة، لذلك يعلل بها الباحث اختياره لمشكلة الدراسة ويدعم بها اختياره لها، وبالتالي فهي تمارس دورا توجيها للبحث.

لا تتم مراجعة الدراسات السابقة بشكل يعزلها عن بعضها البعض، بل يحلل الباحث وينتقد ويقارن بين الدراسات ويحكم على قيمتها وأهميتها (Aveyard H. , 2014) من مختلف الجوانب في محاولة منه للوصول إلى قرارات تهم بحثه من حيث الفرضيات وتصميم الدراسة والأدوات وغير ذلك،

مراجعة الدراسات السابقة عملية تستدعي عمليات معرفية عليا من مقارنة وتحليل وبحث في أوجه النقص، وتفحص نوعية الأدلة المقدمة، وبحث في البيانات التي تدعمها، والتساؤل عن قوة الأدلة وتنوع البيانات التي تدعم استنتاجات أو استنباطات معينة، ومقارنة ما اطلع عليه الباحث من دراسات مع غيرها، واستشكال جدارة المناهج المستخدمة، .... وغير ذلك من العمليات المتطلبة لإجراء المراجعة تجعل منه عملا يستغرق وقتا وجهدا معرفيا كبيرين، وبدون هذه العمليات المعرفية لا يمكن أن تنجز مراجعة الأدبيات بشكل عميق يفضي إلى اشكاليات وفرضيات جديرة بالدراسة والتناول.

المراجعة الناقدة للدراسات السابقة تستدعي أيضا أن يُعمِل الباحث تفكيره في الدراسة قيد المراجعة، تحسبا لإمكانية وجود تفسيرات ممكنة لم يأخذها كاتبها بعين الإعتبار، أو وجهات نظر أخرى مناسبة، لذلك لا يعتبر الباحثُ الخبيرُ كل البحوث المنشورة بحوثا علمية يجدر الأخذ بها إلا بعد تفحص أدلتها وجوانبها المنهجية.

فلا تعتبر كل الدراسات السابقة جديرة باعتمادها أو اعتماد نتائجها، وحتى يتسنى للباحث الأخذ بها يجب تفحص نوع الأدلة التي تقدمها، وما البيانات والوقائع التي تسندها، وما الطرائق المنهجية التي أفضت بالباحث إلى استخلاصها، وعموما يجب أن ينتقد ويتفحص كل الجوانب التي تمس ما يهتم باقتباسه أو الإعتماد عليه في الدراسة الجارية. إن موضع الإشكال في التعامل مع الدراسات السابقة هو الأدلة التي تقدمها وجودتها، فالأدلة التي تستخلص من بحوث كدراسة الحالة وعموم الأدلة الكيفية قد تكون أقل استنادا إلى أدلة امبريقية كافية، والأدلة التي تستخلص من الدراسات المسحية أكثر استنادا إلى الدليل مقارنة بها، ونجد في أعلى هرم الأدلة تلك التي تستخلص من الدراسات التجريبية التي خضعت للعشوائية وللضبط التجريبي (Aveyard, Payne, & Preston, 2021)، وحين يدرجها الباحث في دراسته ويستدل بها لا يجب أن يغفل قوة كل دليل مقارنة بالأدلة الأخرى، فإذا كان باحث بصدد دراسة فعالية بروتوكول معين يستند إلى أدلة تجريبية صارمة فلا يجب أن يفندها من خلال أدلة مستخلصة من دراسات انتهجت دراسة الحالة أو من خلال ملاحظات الخبراء أو الممارسين للعلاج النفسي.

لذلك لا يجب الإكتفاء بتلخيصها أو وصفها أو ذكر تفاصيلها كالنتائج والأدوات مثلا، بل أن يتناولها تناولا نقديا يبين حدودها ليفتح بها آفاقا جديدة (Adams, Khan, Raeside, & White, 2007)، ويجب عليه أيضا أن يبحث عن الروابط المنطقية بين الأدلة والبيانات التي تسندها، ويبحث عن عدم الإنسجام الممكن بين المقدمات ونتائجها، كالتنافر بين المنهج المستخدم واستنتاجاته، كأن تستنتج الدراسةُ المراجَعَةُ العلاقةَ السببية من خلال بحث ارتباطي أو بحث سببي مقارن، أو يتحدث بتعميم مفرط لنتائجه في حين تفتقر الدراسة إلى حجم العينة الكافي للوصول إلى نتيجة موثوقة قابلة للتعميم.

إن مقارنة الدراسات السابقة مع بعضها البعض يتيح الباحث فرصة تركيب الصورة العامة للموضوع، وهو أمر يستحيل من دون القراءة الشاملة الفاحصة، ومن دون ربط الأفكار من مختلف الدراسات، ولا تَتَكشَّف الصورة العامة بنقد كل دراسة على حدا وبمعزل عن الأخريات أو بتفحص دراسة واحدة فقط.

يطرح قرافيتر وآخرون Gravetter et al. (2018) تساؤلات تتعلق بنقد الدراسات السابقة: هل الدراسات السابقة حديثة وكاملة؟ وهي ذات علاقة (بإشكالية الدراسة ومفيدة لها)؟ وهل الفرضيات مصاغة بوضوح؟ وهل مؤسسة على الدراسات السابقة؟ وهل العينة ممثلة لمجتمعها الأصلي؟ هل يمكن أن تستخلص فرضيات أخرى؟ هل يمكن أن نحصل على نفس النتائج إن اختلفت العينة ولكن بنفس الخصائص؟ وغير ذلك من التساؤلات أو الإستشكالات الناقدة لعناصر الدراسات السابقة، والتي هي في الأصل المعايير أو الشروط المنهجية التي ينبغي أن يقوم عليها كل عنصر منها.

ويجب أن تقدم الدراسات السابقة بصورة مختصرة يبين فيها الباحث وضعية الموضوع الذي يتناوله، متناولا فيها الإشكاليات الكبرى التي درست (bell 2010) في ضوء الإشكالية الرئيسية للدراسة المقصودة بالبحث، ومن خلال إظهار الوضعية البحثية للإشكالية يبين الباحث أهم القضايا والنتائج الأساسية من خلال قراءته النقدية لها.

قد يجد الباحث المبتدئ صعوبة بالغة في مراجعة الدراسات السابقة بطريقة احترافية، ويستحسن أن يبتدئ بقراءة الكتب التي تختصر نتائجها، وهي الكتب الجامعية الموجهة للطلبة، والتي تقدم التوجُّهات العامة للباحثين حول موضوع ما، والهدف من ذلك هو أن يستوعب الأبجديات والمسلمات التي تعتمدها الدراسات المنشورة ولا يُفصح عنها غالبا، وفي هذه المرحلة قد يجد الباحث المبتدئ قراءته بطيئة، وهذا راجع إلى أنه لم يألف بعدُ المفاهيم المتداولة في موضوعه، ولا يزال يفترش الأساس النظري في بناه المعرفية ويبني الأسس المتطلبة لفهم الموضوع.

ولتسهيل لهذه العملية يستحسن أن يعتمد تدوين الملاحظات، وبعد قراءة كل فصل أو كتاب، يحبذ أن يراجع ما دوّنه مرة أخرى لاستخلاص تساؤلات معينة والتحديد للجوانب التي يجدها غامضة، ومع استمرار القراءة الناقدة يكتسب خلفية مهمة، تؤهله للإنتقال إلى الدراسات السابقة، ليقف على الجديد الذي يناقشه الأخصائيون ويتداولونه في المجلات العلمية، فيندمج معهم في حوارات عبر المقالات العلمية والملتقيات، وعندها قد يجد أن بعض التساؤلات قد درست وبعضها لم يدرس أو درست بطريقة غير مباشرة، وعندها يكون بصدد الوقوف على إشكالية تستحق الدراسة، وقبل الوصول إلى هذه المرحلة يكون قد وظف قدراته المعرفية الموصوفة أعلاه.

5- صياغة مراجعة الدراسات السابقة:

لا تعرض الدراسات السابقة بطريقة سردية كملخصات لها، بل يجب أن يعرضها الباحث بحيث يظهر أنه قد فهم السياق الإشكالي لموضوعه، ويبرر بها اختياره لمشكلة الدراسة، ويسوغ دلالتها وجدواها البحثية، من خلال توضيح ما سبق العلم به وما لا يزال يحتاج إلى الدراسة.

6-1-الطريقة السردية (التقليدية) :

هي طريقة مشهورة تعتمد على تلخيص ونقد ما جاء في معظم الدرسات السابقة، ويمكن أن تشتمل على مواضيع عديدة، وتفيد بالخصوص في الجمع والتلخيص، وتهدف إلى تزويد القارئ بنظرة بخلفية شاملة لفهم الوضع الراهن للمعرفة، ولإبراز دلالة البحث الجديد قيد الدراسة، كفراغ معرفي أو تنافر في النتائج أو عدم اتساق بينها (Cronin, Ryan, & Coughlan, 2008). ولا يحكم هذه الطريقة منهجية معينة، لان غرضها هو الجمع والتلخيص فحسب، ولأنها تتضمن تعليقات الباحث فقد تكون بها بعض التحيزات (Green, Johnson, & Adams, 2006)، لذا قد تناسب الباحث الذي ينوي القيام ببحث حول موضوع يميل إليه لكن لم يبن قناعات مستندة إلى أدلة ودراسات، فتكون المراجعة التقليدية ضمن مرحلة الاستكشاف المبدئي للموضوع.

6-2-الطريقة المنتظمة :

وهي التي تهدف إلى دراسة فعالية التجارب العلمية والسياسات وفق منهج علمي صارم، وفيها يقارن الباحث بين الدراسات من حيث صرامتها وإحكامها ويقيم أدلتها وما تستند إليه من وقائع، ليتحقق من موثوقية نتائجها ومصداقيتها، وعادة ما يجرى من قبل مجموعات الخبراء، وتعتبر دراسة بحد ذاتها (Ridley, 2012) ولا تخص الباحثين لإنجاز أطروحات الدكتواره أو مذكرات الماستر، ويجب أن تتسم بالشمولية، والوضوح، والإنتظام، وإمكانية إعادة الحصول على نفس التحليل إن اتبع باحثون آخرون نفس الخطوات (Greetham, 2021)، وتستخدم لاتخاذ قرارات بشأن علاجات معينة أو أي أمر يتعلق بالشأن العام كانتهاج طريقة جديدة في الدوام المدرسي،

فعندها يمكن أن يجري فريق من الباحثين مراجعة للأدبيات التي كتبت حول الموضوع، وينتهوا إلى نتيجة مستندة إلى أدلة تدعم نظام دوام معين.

6-3-الطريقة المدمجة :

هو نوع من التناول الناقد لدراسات سابقة ممثلة بشكل جيد لموضوع ما بطريقة مدمجة لها بحيث تتبدى أطرا ووجهات نظر جديدة حول الموضوع (Torraco, 2005)، وتهتم هذ الطريقة بمناقشة فكرة جوهرية معينة ترتكز عليها، ولها هدف يرمي إلى الوصول إلى موقف نقدي من الدراسات السابقة، يكون مقدمة لبناء إشكالية بحثية أو موقف منهجي ما.

6-4-الطريقة الكرونولوجية :

هي طريقة يتبع فيها الباحث التطورات والتغييرات التي استحدثت لمقاربة إشكالية ما، متتبعا تلك التغييرات بدلالة الزمن، حيث يحدد المعالم والمنعرجات التي تقف وراء إحداث تلك التطورات وأسبابها، ويربطها بالسياق العام للتخصص وبالعلم عامة، ولا تمت هذه الطريقة بصلة إلى ما هو معمول به في بعض الأعمال "العلمية" التي تناقش في بعض الجامعات، إذ لا تعني الترتيب الزمني للدراسات السابقة حيث يعرضها الطالب دراسة بعد أخرى وفق زمن نشرها، وتلك عملية تركيم لها، لا تفضي إلى توضيح وضع المعرفة الراهنة، ولا تبين الجهد المعرفي للطالب وفهمه لها.

6-5-الطريقة المفاهيمية :

يناسب عندما يود الباحث عرض نتائج الدراسات السابقة حسب نظرية ما، حيث تعالج موضوعا في ضوء تلك النظرية فتصفها وتحللها (Cronin, Ryan, & Coughlan, 2008).

6-6-الطريقة الموضوعاتية :

يتتبع الباحث وفق هذه الطريقة إشكالية الدراسة وفقا للموضوعات التي يهتم بها، من حيث المقاربات التي تناولت الإشكالية مثلا، أو من حيث انسجام النتائج البحثية، أو المناهج المتبعة، أو أدوات جمع البيانات، وغير ذلك.

6- دور الدراسات السابقة في تطوير الإطار المفاهيمي للدراسة:

للإطار المفاهيمي دور توجيهي للبحث ككل، ذلك أنه يبنى من خلال الدراسات السابقة والكتب المتخصصة (Park, Grace, & Ewing, 2020) فهو يصف حالة ما هو معروف لدى المجتمع العلمي من خلال الدراسات السابقة، ويحدد ما ينبغي دراسته كالفجوات المعرفية والأسس المنهجية للدراسة (Varpio, Paradis, Uijtdehaage, & Young, 2020). وتكمن أهميته في أنه الإطار الذي يضفي على الإشكالية وتساؤلات الدراسة وتفسير نتائجها وغير ذلك من العناصر المنهجية معناها المنهجي والنظري ويجعلها مبررة وذات مغزى.

7- دور الدراسات السابقة في البحوث الكمية:

تدور التحليلات أعلاه حول استخدام الدراسات السابقة في البحوث الكمية نظرا لانتشارها الواسع في الجامعة الجزائرية، فدورها دور جوهري بدونها لا يمكن للبحث أن ينطلق، فالباحث حين ينوي القيام بدراسة ما، يتوجب عليه أن يبحث مليا في الأدبيات التي كتبت في الموضوع ليقف على الأسئلة التي درست، وليتفادى إعادة إنتاج الملعقة، وليصوغ إشكالية ذات صلة بالمعارف السابقة في الإختصاص وضمن سياقها، أدبيات الدراسة هي حجر الأساس في البحوث الكمية وهي الموجه لها بدءا من تحديد اشكالية الدراسة، وفرضياتها، وتحديد التعريفات الإجرائية، والجوانب المنهجية الميدانية من أدوات وتحليلات، إنتهاء بتفسير النتائج أو مناقشتها، لتصير مرة أخرى هي منطلق دراسات أخرى بآفاق إشكالية جديدة.

ويجد الباحث في البحوث الكمية فصلا كاملا يُعَنوَن بـ"مراجعة الدراسات السابقة" وتشتمل عناصر متعلقة بالمتغير المستقل، وبالمتغير التابع، وعناصر بكلا المتغيرين، كما أنها تستغرق البحث من بدايته إلى نهايته ما يبين دورها التوجيهي لكل تفاصيل البحث الكمي (Creswell & Creswell, 2023).

8- دور الدراسات السابقة في البحوث الكيفية:

تفترض المقاربة الكيفية أن موضوع الدراسة فريد من حيث طبيعته وأبعاده، ولا يتشابه مع غيره من الحالات المدروسة سابقا إلى قليلا، ويبتدئ بتحديد أسئلة مبدئية قابلة للتغيير مع تقدم تحليل البيانات، وتعتبر اطلاع الباحث على الدراسات السابقة في المراحل الأولى قبل تحديد الأسئلة وجمع البيانات إجراء غير منهجي، لأن فهم الباحث للحالات سيتأثر بالنظريات والدراسات السابقة، ما يعني أن إمكانية الباحث لكشف تميز الظاهرة المدروسة لدى الحالات المتناولة لن يكون في متاحه، بهذه الطريقة تمارس الدراسات السابقة دور الموجه والمؤطر لتفكير الباحث وفهمه للحالات، إذ أنه سيفهم الحالات الجديدة ضمن نتائج فهم الحالات السابقة الملخصة والمنظر لها في الدراسات السابقة، وستحجب عنه التميز والتفرد الموجود في الحالات الجديدة في دراسته، لذلك تقر البحوث الكيفية أن يعرض الباحث إشكاليته ضمن خبراته الشخصية وملاحظاته الميدانية بعيدا عن أي توجيه من النظريات والدراسات السابقة، في سبيل أن تصفية ذهن الباحث ليتمكن من الولوج إلى أعماق خبرة الحلالات المشاركة في الدراسة.

ويستساغ دور الدراسات السابقة ضمن المقاربة الكيفية ـ النظرية المجدرة مثلا ـ بعد جمع البيانات وبناء النظرية التي تفسر السلوك الملاحظ، بعدها يعود بنظريته ونتائجه إلى الدراسات السابقة لينظر كيف تتوافق أو تختلف معها ولماذا، مع ذلك يمكن أن يعتمد الباحث الكيفي على

الدراسات السابقة في بداية البحث ولكن بطريقة مرنة (Ary, Jacobs, Sorensen, & Razavieh, 2010)، ولا تزال قضية توقيت استخدام الدراسات السابقة في الدراسات الكيفية قضية جدلية منذ ظهورها (Dunne, 2011).

- الخاتمة:

الدراسات السابقة عنصر مهم في تطور البحث العلمي وإنجازه، وبدونه يصير البحث مبتور الصلة بالمعارف التي يفترض اتصاله الوثيق بها، وتمنح الباحث آفاقا بحثية وتمده بإشكالات تزيد من قيمة نشاطه البحثي، ويتضح من خلال المراجع المعتمدة في توظيف الدراسات السابقة في الدراسات الكمية والكيفية، كيف أنها تتطلب جهدا معرفيا جهيدا، وتتطلب وقتا ليس بالقليل لقراءتها قراءة معمقة كي تنتهي إلى إشكالية وتساؤلات وفرضيات عميقة بحيث يمكن أن تسهم دراستها في إثراء المعرفة العلمية، على عكس الشائع الذي يجعل منها عملا قرائيا آليا خاليا من المعنى، غير مبذول فيه جهدا معرفيا إثرائيا، وتظل الدراسات السابقة عملا يتطلب تمرينات وتدريبات كثيرة ليتمرسها الباحث.

ويبدو من الضرورة دراسة تصورات الطلاب الجدد حول توظيف الدراسات السابقة، وهذه إشكالية لا تتوفر حولها الكثير من الدراسات، كما أنه من المفيد أن يشتغل الباحثون في التعليمية بتطور تصورات وفهوم الباحثين الخبراء حول الدراسات السابقة والعلميات المعرفية العليا التي يوظفونها في مراجعتها، لتكون دليلا يعتمد عليه تدريس المنهجية العلمية في علم النفس عامة وفي مساعدة الطلاب لتحسين فهمهم لتوظيف الدراسات السابقة ومراجعتها، وتزداد أهمية هذا المقترح في بيئة يغلب فيها الحفظ والنقل كاستراتيجية تعلمية عامة، يعتقد الطلاب أنها الوسيلة الأنجع لرفع التحصيل العلمي، حتى انتقلوا بها إلى الجامعة ومارسوا بها البحث العلمي.

وإذ يغلب الفهم السردي والتراكمي (بمعنى الجمع غير المترابط) للدراسات السابقة على فهم بعض من الباحثين، فإن إطلاق مجموعة من الدراسات التي تستكشف هذه الفهوم المتأثرة بالنظرة العامة للمعرفة للمتعلم العربي، وليس من السهل بمكان أن يتم تغيير عاداته المعرفية القائمة على الحفظ والتخزين والإسترداد عند الطلب، لذا فإن تدريس المنهجية العلمية عموما يفتقر إلى الدراسات المعرفية التي تستكشف البنى الفكرية للمتعلمين، وكيف يُمَفهِمُون الدراسات السابقة، إذ أنه من الواضح جدا أن مراجعتها تُفهم على أنها جمع وحصر وترتيب وتنسيق.

- قائمة المراجع:

Adams, J., Khan, H. T., Raeside, R., & White, D. (2007). Research methods for graduate business and social science students. Sage.

Arksey, H., & O'Malley, L. (2005). Scoping studies: towards a methodological framework. International Journal of Social Research Methodology, 19-32.

Ary, D., Jacobs, L. C., Sorensen, C., & Razavieh, A. (2010). Introduction to research in education (8 ed.).

Aveyard, H. (2014). Doing a Literature Review in Health and social care, a practical guide (3 ed.). New York, U. S.: Open University Press.

Aveyard, H., Payne, S., & Preston, N. (2021). A Postgraduate's Guide to Doing a Literature Review in Health and Social Care (2nd ed.). London: McGraw Hill.

Creswell, J. W., & Creswell, J. D. (2023). Qualitative, quantitative, and mixed methods approaches. Los Angeles: SAGE Publications, Inc.

Cronin, P., Ryan, F., & Coughlan, M. (2008). Undertaking a literature review: a step-by-step approach. British journal of nursing, 17(1), 38-43.

Dunne, C. (2011). The place of the literature review in grounded theory research. International Journal of Social Research Methodology, 14(2), 111-124.

Frederick, L. T., Leong, N. S., & Lyons, a. B. (2012). Developing Testable and Important Research Questions. In H. Cooper, APA handbook of research methods in psychology (pp. 119-132). Washington, DC: American Psychological Association.

Gravetter, F. J., & Forzano, L.-A. B. (2018). Research Methods for the Behavioral sciences (6th ed.). Boston, US: Cengage.

Green, B. N., Johnson, C. D., & Adams, A. (2006). Writing narrative literature reviews for peer-reviewed journals: secrets of the trade. Journal of chiropractic medicine, 5(3), 101-117.

Greetham, B. (2021). How to write your literature review. Macmillan Education.

Hegde, M. N., & Salvatore, A. P. (2021). Clinical research in communication disorders _ principles and strategies. (4, Ed.) San Diego, CA: Plural Publishing, Inc.

Lodico, M. G., Dean, T. S., & Katherine, H. V. (2010). Methods in educational research: from theory to practice. (2, Ed.) Jossey-Bass.

McInerney, D. M. (2001). Publishing your psychology research: a guide towriting for journals in psychology and related fields. National Library of Australia.

Ridley, D. (2012). The literature review a step-by-step guide for students (2nd ed.). California: SAGE Publications Ltd.

Torraco, R. J. (2005). Writing integrative literature reviews: Guidelines and examples. uman resource development review, 4(3), 356-367.

Park, K., Grace, J. B., & Ewing, R. (2020). ConceptuL frameworks. In R. Ewing, & K. Park, Basic quantitative research methods for urban planners (1st ed., pp. 76-87). New York, NY: Routledg.

Varpio, L., Paradis, E., Uijtdehaage, S., & Young, M. (2020). The distinctions between theory, theoretical framework, and conceptual framework. Academic Medicine, 95(7), 989-994.